مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- المركز الجامعي بغليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
رقم الإيداع: 2015 - 3412
مصنفة ج : قرار 1432 بتاريخ 2019/08/13
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 06/ العدد: 04 (2020) - ص 229- 238

# الخطاب الديني في الأربعين النووية بين مركزية المعنى واتساع دلالات اللفظ

# The religion speech between meaning centralization and breath of the word in Nawawiya Forty

خالد ناصري [1] أ.د جمال مجناح [2]
didove002@gmail.com [1] medjenahdjamel@gmail.com- [2]
جامعة محمد بوضياف -المسيلة / الجزائر

تاريخ الاستلام: 2020/06/23 تاريخ القبول: 2020/07/17 تاريخ النشر: 2020/12/10

## ملخص البحث

يحظى الخطاب الديني كغيره من الخطابات – الأدبية والفلسفية والسياسية ... – بمرونة وإبداع لغوي، وتشعيبات دلالية فسيحة، الأمر الذي جعل الرهان حاليا كله على المتلقي – القارئ المثالي - في فهم الخطاب، إذ يستعين في ذلك بما يتيحه الفهم الصحيح وبما تتيحه الكلمة من دلالة أقرب إلى المعنى الموضوع، ونقصد بذلك السياق أو المقام باعتباره المفتاح لتيسير الفهم وتبين حقيقة الأحاديث كما هي أو كما يفهمها العقل بالمعنى الأقرب الذي قصد من إنتاجه: بألا تزيغ عن مقاصد صاحبها.في حدود مقبوليته ومقروئيته.

الكلمات المفتاحية: الخطاب الديني – المعنى – السياق – التداولية – القصدية.

## ABSTRACT:

As many others discourses, religious speech promotes flexibility and linguistic creativity with branches, which made the entire bet on the ideal reader to understand this speech by the help of what affords the closest meaning that the words provides.

we aimed the context as a key to facilitate understanding and to show the truth of the Ahadiths as they are or as the brain understanding in order to not deviate from its meaning within the limits of his readability and acceptability.

Keywords: religion speech – meaning – context – pragmatic – intentionality.



[1] المؤلف المرسل: خالد ناصري.

## 1. مقدمة:

يمثل الخطاب النبوي الشريف باعتباره المرجع الثاني بعد القرآن الكريم تحفة من تحف التواصل البشري وصنفا من أصناف النصوص التي مدارها القداسة والصواب، فهندسته وبلاغته ودلالة تعابيره جعلت منه مبعثا ومرجعا لتفاعل العقول والعواطف، وإذ تسعى التداولية كمبحث إجرائي في تحليلاتها إلى استنطاق اللفظ وإخراجه من حدود المعجم المغلق إلى أفاق المعنى المراد مرتكزة في ذلك على مبحث السياق باختلاف ضروبه وأنواعه؛ فإنها أيضا تتجاوز اللفظ بفهم العلاقة الموجودة بين طرفي الخطاب – المخاطَب والمخاطِب – باعتبارهما محوري العملية التواصلية، بغية الكشف عن الخطاب المرئي وغير المرئي منه في حدوده الزمانية والمكانية.

وإذ يرسم السياق لنفسه سبلا حينما يبرز طبيعة العلاقة بين المخاطب والمتلقي في رسالته التبليغية، فإنه يتعين عليه - المتلقي- تمحيص المعنى وضبطه بحسب ما حُمِل عليه، فالنص عموما قد يؤدي معنى أوليا بكلماته وتركيب جمله، ولكن سياق التلقي يجعله يتحرك نحو دلالة فيها أصالة تفهم من سياق حمله.

يحيلنا ما سبق إلى أن مجال البحث في النصوص الدينية لا يقف ولا يقتصر على الدراسات التفسيرية فحسب؛ بل يتعداها إلى الدراسات اللغوية، فهل يتحقق الفهم للنصوص بتقاربهما معا؟ وكيف يمكن أن نحلق بتأويلات اللفظ لنقرب الفهم الصحيح؟

نحاول في هذه الورقة البحثية للتأكيد على الغزارة اللغوية والبلاغة النبوية الشريفة؛ لما يميزها باعتبارها مجالا خصبا للبحث اللغوي، ضمن منهج وصفي تداولي يسعى إلى تجاوز حدود الخطاب بفهم العلاقات الموجودة بين المخاطبين، وتجدر الإشارة هنا إلا أننا اكتفينا ببعض الأحاديث التي تخدم بحثانا دون التطرق لأغلبها.

## 2. متن الأربعين النووية:

يعد المتن من أشهر المتون الحديثة التي جُمعت، ومن أمهاتها على صغر حجمها وقلة أحاديثها، وقد نسبت تسميتها لجامعها فسميت بالأربعين النووية للإمام النووي، "فمن أعماله: هو جمعه لاثنين وأربعين حديثا، منها ستة وعشرون حديثا أملاها عليه أستاذه الإمام الحافظ أبو عمرو بن الصلاح، وأطلق عليها اسم الأحاديث الكلية لأنها من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم، ثم أخذ هذه الأحاديث ليزيد عليها ستة عشر حديثا لتكتمل إلى اثنين وأربعين حديثا وسمي كتابه بالأربعين[1]" وهو متن مشهور.. في فنون مختلفة من العلم، كل حديث منها قاعدة عظيمة من قواعد الدين فمما يزيد من قيمة هذه الأحاديث أنها كلها أحاديث صحيحة وردت من غير أسانيد لتسهيل حفظها والعمل بها، إذ شملت على كل أمور الدين ذات النفع للمسلمين في دينهم ودنياهم، وبذلك صار المقصد من جمعها مقصدين، مقاصد الأحاديث في الأربعين من أحاديث الرسول الكريم، ومقصد جامعها في تبليغ السنة النبوية الشريفة.

### 3. هندسة البنية في الأربعين النووية:

على النقيض من الخطابات الأدبية التي تسعى إلى جعل المألوفة منها غير مألوفة، فإن الخطاب النبوي الشريف كله مرتكز على التيسير والتبسيط المجمل لأركان هذا الدين، وتعتبر الأربعون النووية من أمهات الكتب،" فأكثر علماء الحديث – رحمهم الله تعالى – من السلف الصالح ومن بعدهم من جمع أربعين حديثا في باب من أبواب الشريعة المحمدية الغراء، سواء كانت في التوحيد أم في العبادات أم في الأخلاق، أم في الجهاد... فأراد الإمام النووي - رحمه الله تعالى- جمع أربعين حديثا تشمل ذلك كله، فكانت الأحاديث الموسومة بالأربعين النووية، وهي في الحقيقة ثِنتان وأربعون حديثا ولكن على طريقة العرب في جبر الكسر والتقريب[2]" وقد سميت الأحاديث بالنووية نسبة إلى جامعها: الإمام النووي رحمه الله تعالى- ت 676هـ -.

ويبدوا أن التنوع الحاصل بين الأحاديث النبوية الشريفة في المتن – بين طول وقصر- نابع عن طبيعة المتلقي الآني للحديث، ونابع أيضا عن طبيعة السؤال، وطبيعة الموقف، الأمر الذي جعل النبي صلى الله عليه وسلم أمام خيارات أسلوبية متعددة تفرض إشباعا يحصل السكوت عنه، أو إقناعا في الجانب الحجاجي منه؛ خاصة وأن الدارسين اللسانين قد اعتادوا النظر إلى الخطاب اللفظي الحجاجي" كخطاب يتوفر على خاصية بنائية وبراغماتية تجعله مختلفا عن غيره الخطابات السردية والحكائية والإخبارية[3]".

ولقد اشتمل المتن على جملة من الخصائص يمكن إيرادها في النقاط الآتية:

- حسن الترتيب وجودة البنية اللغوية والدلالية بما اشتملت عليه من وسائل منطقية وبلاغية، وبما استأثرته المدونة من مسائل فقهية يستعين بها المسلم على دينه.

- الحوار، باعتباره " الجزء المهم في توطيد العلاقات العامة[4]"، والأمثلة عليه كثيرة، ومن الطرق التي اعتمدها النبي صلى الله عليه وسلم في حورياته، "أن يورد السؤال بشكل مشوق يرغبهم في أن يعرفوا الجواب، ودلك كأن يذكر لهم أمرا عظيما ومقصدا هاما، وهدفا مرجوا يسعى إليه كل مسلم، ثم بعد دلك يورد السؤال التالي: ألا أدلكم عليه؟ ومن الطبيعي أن يكون جواب الصحابة: بلى[5]"،﴿فعَن مُعَاذ بن جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: قُلتُ يَا رَسُولَ الله أَخبِرنِي بِعَمَلٍ يُدخِلُنِي الجَنَّةَ وَيُبَاعدني منِ النار قَالَ: لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيْمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيْرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ ... ثُمَّ قَالَ: أَلا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ... ثُمَّ قَالَ: أَلا أُخبِرُكَ بِملاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ وَقَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا... ﴾[6]".

- الإيجاز دون الإطناب؛ خاصة وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلم،﴿ فعَنِ أَبِيْ عَمْرٍو، وَقِيْلَ،أَبِيْ عمْرَةَ سُفْيَانَ بنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُوْلَ اللهِ قُلْ لِيْ فِي الإِسْلامِ قَوْلاً لاَ أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَداً غَيْرَكَ؟ قَالَ: (قُلْ آمَنْتُ باللهِ ثُمَّ استَقِمْ)﴾[7] ، وقد جمع للسائل في هاتين الكلمتين ما اشتمله الإيمان والإسلام اعتقادا وقولا وعملا.

- التكرار أو المعاودة لما يسوقه المتكلم من أقوال يستعين بها للدفاع عن آرائه؛ يقول ابن فارس: " ومن سنن العرب التكرير والإعادة إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر[8]"،﴿ عن أميرِ المؤمنينَ أبي حفصٍ عمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: ((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَّاتِ وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَو امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ﴾[9].

تقوم هده الهندسة اللغوية والفنية على تشكيل أنماط أسلوبية تزيد من قوة أفعالها اللغوية المباشرة وغير المباشرة، فهدا التنوع الحاصل حتما قد أدى إلى التنوع في الأغراض من التأكيد إلى التقرير إلى النهي وإلى الأمر وغيرها من الأساليب، وهو بذلك يتح الفرصة أمام المتلقي للتفكير بالاستقراء والاستنباط والاستنتاج الذي يحيل إلى المعنى الأقرب والمناسب ولا يخل به.

وتنظر نظرية القراء الحديثة إلى المعنى على أنه" نتيجة لقاء بين نصين: النص المقروء ونص القارئ[10]"، فتتم عملية استنطاق المعنى لدى المتلقي قياسا على الفهم السابق للخطاب، واستيعابا للاختيارات الفنية التي يصوغها منتج الخطاب، يقول إيزر Wolfgang-Isère: "إن متعة المتلقي كمتلقي لا تبدأ إلا عندما يصبح هو نفسه منتجا، أي عندما يسمح النص له بأن يأخذ ملكاته الخاصة بعين الاعتبار[11]"، وإذ لا يمكن الجزم بالملكات وحدها فإنه حتما لا مناص من السياق لما له من بالغ الأثر في تحديد وتوجيه وتبيان المعاني الوظيفية للكلمات ضمن إطار الجملة.

وعليه يتحدد اتجاه المدلول اللغوي للكلمة وفقا للتداعيات اللغوية التي يمكن أن تحدثها أثناء استعمالها، ولقد ورد في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم من الكلمات التي تتخذ لنفسها معاني مختلفة بحسب موقعها من السياق،إذ ليس المعنى المعجمي هو المعنى المنشود الذي يبنى عليه مدلول العبارة، ونأخذ على ذلك مثالا من أحاديثه صلى الله عليه وسلم: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ﴿ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤول عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ ومَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، -قَالَ: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ- وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ﴾[12].

ليس في هذا الحديث النبوي" كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤول عَنْ رَعِيَّتِهِ " تشبيه للناس ب" الغنم والخراف "، فكلمة " رعى " ومشتقاتها في اللغة العربية تعني حفظ الشيء وأداء حقه،" فحين نقول في رعاية الله، أي في حفظه، وحين نقول الرعاية الأسرية، أي حفظها وأداء حقها.

أما رعي الغنم فهو من الاستعمالات اللغوية لمعنى"رعى"، ولإقامة برزخ نفسي بين معنى " الرعاية للبشر"، ومعنى "الرعاية للغنم"، وظفت كلمة"راع" للدلالة على رعاية البشر أي "الولاية والولاة"، على" رعاة " بينما تجمع كلمة " راع " على " رعاية الماشية " على " رعيان ورعاء ".

إن الاستعمال اللغوي لهذه المفردة لو لم تقرن بالسياق الذي نسبت فيه إليه،لجعلنا أمام تشبيه استخفافي يحيل على الاستهانة والاستهزاء، وهو حاشاه أن يكون كذلك، فالسياق وما يحيط به من قرائن هو الذي خصص معنى الولاية على معنى الرعاية للغنم أثناء حديثنا هذا عن درجات المسؤولية في الإسلام.

وهو ما أكده الطاهر بن عاشور رحمه الله حينما قال:" يقصر بعض العلماء ويتوحل في خضخاض من الأغلاط حينما يقتصر في استنباط أحكام الشريعة على اعتصار الألفاظ ويوجه رأيه إلى اللفظ مقتنعا به، فلا يزال يقلبه ويحلله ويأمل أن يستخرج لبه، ويهمل ما قدمناه من الاستعانة بما يحف بالكلام من حافات القرائن والاصطلاحات والسياق[13]".

وحري بالتأكيد على أن عملية الفهم والإفهام لا تتم إلا بالاتكاء على السياق، وقد نُظر إليه على أنه قرينة أساسية يستعان بها في عملية الفهم، فمن خلاله يتحدد مسار الدلالة فينشرح أفقها وينغلق لاعتبار أنه القرينة الكاشفة عن دلالات المفردات ومقاصد المتخاطبين، فهدا فيرت Firth يصرح " بأن المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية؛ أي من خلال وضعها في سياقات مختلفة، والسياق عنده سياق داخلي يتمثل في العلاقات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية... وسياق خارجي، ويتمثل في السياق الاجتماعي أو سياق الحال بما يحتويه، وهو يشكل الإطار الخارجي للحدث الكلامي[14]".

لم يكن الاهتمام بالسياق منحصرا عند علماء اللغة فقط، بل إننا نجد الأصوليين أنفسهم يولون اهتمامهم وعنايتهم به، ونجده قد ارتبط بالقرائن والأحوال التي تحيط بالخطاب، فهدا ابن تيمية – كما أشار إليه في كتابه بدائع الفوائد – قد جعل منه ضرورة وحتمية لا مناص منها؛ لأن إهماله سيؤدي حتما إلى المغالطة في فهم النصوص وترجيح الأقاويل، يقول ابن تيمية في ضرورة السياق:"السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته. فانظر إلى قوله تعالى:﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾- الدخان، الآية 49- كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير[15]".

إن هذا التعاشق الحاصل بين اللفظ والسياق لضرورة لا يمكن تعليقها أو كتمها، فتجاورهما يزيد من حالة التناسب بين اللفظ ومعناه ويتحرر من حالة انغلاقه وانكفائه على نفسه.

### 4. بين تلقي المعنى واتساع دلالته:

يرصد دارسو الخطاب الديني تلك القيمة الفنية والإبداعية التي تتربع عليها أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم والتي أكدت مرونتها وقدرتها على حمل وتبليغ مقاصد الشريعة الإسلامية، الأمر الذي يؤهل النص الديني انفتاحه الدائم والمستمر على تعدد القراءات بما أنه دائم توليد المعاني،" ومن هنا تغدو عملية التلقي متجاورة لمفهوم جمالية التلقي ومتعة القراءة بصفتها نشاطا ثقافيا ومعرفيا...إننا حين نفهم عملا فنيا عظيما نستحضر ما سبق أن جربناه في حياتنا ويتوازن – من ثم – فهمنا لأنفسنا.

يحيل القول السابق على ضرورة وجدوى أدوات الفهم والتأويل لبلوغ الفهم الأقصى للخطابات بجميع أنواعها، بحيث تكون قادرة على استجلاء المظاهر النصية الذهنية والاجتماعية والتاريخية للخطاب، ويشير ظافر الشهري إلى فاعلية هده الأدوات ونجاعتها في بلوغ جانب مقصدي يتجاوز المعنى المصرح به: " وقد استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم عبارة ( ما بال أقوام ) في خطابه إذ استعمل لفظ النكرة، ليدل بها على أقوام ارتكبوا مخالفة شرعية، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرد التشهير بهم بل اتخذ من فعلهم مثالا لوعظ المسلمين، دون فضح من ارتكب المخالفة منهم[16]".

فمما لا شك فيه أن المرسل لا ينتج خطابه عبثا؛ وإنما لتحقيق غايات وأهداف معينة يسطرها هو بحسب الاستراتيجية التي ينتخبها، ورد في الحديث الثامن من حديث حرمة دم المسلم ﴿عَن ابن عُمَر رَضِيَ اللَّه عنْهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: ( أُمِرْتُ أَن أُقاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَن لا إِلهَ إِلاَّ اللَّه وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، ويُقِيمُوا الصَّلاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ، فَإِذا فَعَلوا ذلكَ، عَصَمُوا مِنّي دِمَاءَهُمْ وأَمْوَالَهم إِلاَّ بحَقِّ الإِسلامِ، وحِسابُهُمْ عَلى اللَّهِ تعالى﴾.

بالعودة إلى الحديث نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد استهل حديثه المروي بالفعل الماضي (أمرت) "ونقول عنه فعل ماضي للمفعول لأن الفاعل الآمر هنا هو الله، وفي حق غير الله يقال للمجهول، وقد حذف النبي صلى الله عليه وسلم الفاعل تعظيما، وتفخيما، والوجه في ذلك شهرته تعالى بأنه الآمر للنبي صلى الله عليه وسلم ولا يؤمر النبي صلى الله عليه وسلم إلا منه تبارك وتعالى[17]".

لا خفاء أن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالقتال يجعل أمته نفسها مأمورة بما أُمِر به "لأن الأصل استواؤه مع أمته فيها، إلا ما قام دليل على انه مختص به، وهدا ليس منه[18]". فالنبي عليه الصلاة والسلام قال: ﴿أُمِرْتُ أَن أُقاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَن لا إِلهَ إِلاَّ اللَّه وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ﴾، ولم يقل أمرت أن أَقتل الناس حتى يشهدوا، فلو كان الفعل أقتل لكان التوجيه بأن يُقتل كل من لا يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

يتفق الإمام البوطي رحمة الله تعالى عليه والدكتور عبد الله رشدي في حديثهما عن هذا الحديث كما أشار علماء اللغة: بأن الفعل (قاتل) جاء على وزن (فاعل) وهو يرد ليحمل معنى المشاركة؛ أي أمرت أن أواجه قصد الآخرين إلى إيذائي في مجال الدعوة إلى الله بأن أصد إيذاءهم بالقتل إن أرادوا دلك، فالنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون من بعده يدعون إلى دين الله على بصيرة؛ فمن شاء فليؤمن ومن شاء لا يؤمن، ويحدث الاشتباك والقتال إذا كان هناك من سيصد النبي ومن بعده عن الدعوة السلمية، فيصير التكليف هنا بالمقاتلة إذا منعنا من إظهار دين الله تعالى، يقول الله عزوجل في منزل تحكيمه: ( وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ) البقرة (190).

لقد كان لخاصية الاستعمال اللغوي الميزة الأساسية في تفريغ النصوص لدى الأصوليين خاصة في الجانب الإنجازي للأفعال:"وهي خاصية من خصائص الخطاب الشرعي ناتجة عن اعتباره استعمالا لغويا[19]". يقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: ﴿ لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَكْذِبُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ" رواه مسلم ﴾[20].

وردت الأفعال الكلامية في الحديث السابق الذكر بصيغتي النهي والأمر، فأما النهي، ففي قوله: ( لا تحاسدوا، لا تناجشوا، لا تباغضوا، لا تدابروا، لا يبع، لا يظلمه، لا يكذبه، لا يحقره )، وأما صيغة الأمر فقد وردت في قوله ( كونوا )، فالفعل الكلامي المتضمن في الحديث قد تضمن نواهي عن أمور وجب على المسلم تركها، وأوامر وجب الأخذ بها، وتشع كلمات هذا الحديث بقيمة عاطفية بالغة تحتمي بضلال سياقية تقتضيها المناسبة والاستراتيجية الخطابية، فكلمة مثلا "مسلم" والإشارة

الشخصية في الضمير المُستتر"هُ" والتي تعود على المسلم في قوله :﴿ بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى سْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ ﴾ كلها تحمل ظلالا عاطفية بالغة تتعدى حدود الزمن الواحد والرقعة الجغرافية الواحدة، كما تحمل ألوان وصيغ ذات شحنات عاطفية تتماشى مع دعوته إلى صلاح أمور المسلمين عامة في دنياهم حتى تصلح آخرتهم.

ويفهم المخاطَبُ ما يقوله المتكلم وما يقصده انطلاقا من جملة المفاهيم والمعارف المشتركة التي يتقاسمها المتكلمون، ويَعتبر طه عبد الرحمن أن المعرفة المشتركة أو ما يعرف بالمعرفة التداولية:" أنها جملة من الاعتقادات والتصورات والتقويمات عن الذات والغير والأشياء والمعاني، يشترك فيها المتكلم والمخاطب مع جمهور الناطقين، وقد نميز فيها أقساما أربعة:

- معرفة لغوية - معرفة ثقافية - معرفة عملية -معرفة حوارية[21]".

﴿ عَنِ أَبِيْ عَمْرٍو، وَقِيْلَ،أَبِيْ عمْرَةَ سُفْيَانَ بنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُوْلَ اللهِ قُلْ لِيْ فِي الإِسْلامِ قَوْلاً لاَ أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدَاً غَيْرَكَ؟ قَالَ: "قُلْ آمَنْتُ باللهِ ثُمَّ استَقِمْ﴾[22].

إن البحث في وظيفة الكلام يتعين استحضار كل المعارف التي قد أشار إليها الدكتور طه عبد الرحمن؛ فالمعرفة اللغوية والمشترك اللغوي ضرورة لا بد منها لتحقيق التواصل السليم الذي تحدده الأثر والمعتقدات الخلفية الدينية والثقافية والعلمية، ففي قوله صلى الله عليه وسلم :﴿ قُلْ آمَنْتُ باللهِ ثُمَّ استَقِمْ﴾، معرفة مسبقة للنبي صلى الله عليه وسلم بالمُخاطَب وبأحواله؛ بأنه مسلم ويصلي ويزكي ويصوم،" فالمعنى يوجِي أو يقصِد حينما يُعتبر اعتبارا آليا[23]"، فدلالة اللفظة قل آمنت تتسع اتساعا وتحيل الفاهم العاقل المسلم إلى تمظهرات الإيمان الشرعي كما أشير إليه في حديث جبريل: ﴿...قَالَ: فَأَخْبِرنِيْ عَنِ الإِيْمَانِ، قَالَ: " أَنْ تُؤمِنَ بِالله، وَمَلاَئِكَتِه، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَومِ الآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ " قَالَ: صَدَقْتَ...﴾[24].

وأما الاستقامة فتشمل كما قال البيضاوي: "إتباع الحق والقيام بالعدل ولزوم المنهج المستقيم، وذلك خطب جسيم لا يحصل إلا لمن أشرق قلبه بالأنوار القدسية وتخلص من الظلمات الإنسانية الطبيعية وأيده الله من عنده، وقليل ما هم[25]".

### 5. الخاتمة:

تمثل الخطابات مركز جدب لخلفيات معرفية مختلفة ومتنوعة تسعى لاستكناه آليات الإنتاج الاجتماعي للمعنى؛ هدا الأخير وحده منغلق بمعزل عن السياق، لا يمكنه إلا أن يزيد من سوء الفهم والابتعاد كل الابتعاد عن الصحيح منه، خاصة إذا ما علمنا أن تعاملنا يكون اتجاه نصوص دينية مقدسة تستوجب الإحاطة الكافية بعلوم اللغة وأساليبها ومناسبات قولها وفيمن قيلت ولمن

قيلت، ومقتضيات القول ومقاصد الشريعة، والمعنى الديني لا بد له أن يتصل اتصالا وثيقا بمراجع الدين التي تمده بقابلية الانفتاح على تفسيرات وتأويلات أوسع تقتضيها متطلبات كل زمان ومكان، وعليه:

- لا يمكن عزل أي خطاب مهما كان نوعه عن جملة السياقات المحيطة به، والتي تساهم على فك شفرته.

- لنجاح الخطاب يستوجب الاتفاق اللغوي والثقافي والبيئي بين منتج الخطاب ومتلقيه.

- تحددت معالم المقبولية في الخطاب النبوي الشريف من حيث هيئة ومكانة صاحبها وبنيتها اللغوية واستحسان السامع لها.

- أن المنهج التداولي كمنهج إجرائي يمكن أن يساهم بأدواته على تحديد المقاصد كما أرادها المنتج للخطاب.

- قد زادت الهندسة اللغوية والفنية على تشكيل أنماط أسلوبية تزيد من قوة أفعالها اللغوية المباشرة منها والغير مباشرة.

من هنا وجب التعامل مع الرموز كنافذة نطل بها على المعاني المقصودة والموسعة والقريبة من مقاصد المتكلم، لأن فهم رموز الخطاب بما تحمله دلالات الكلمة بافتراضاتها المتعددة من شأنه ان يزيد من الدقة في التواصل.

**الهوامش:**

1 - ينظر محمد باداشاه، عبد الله محمد بلال، (2017)، شواهد التشبيه في الأربعين النووية، مجلة القسم العربي جامعة بنجاب باكستان ، عدد24، ص 53.

2 - عبد الله بن محمد النبراوي، (2014)، حاشية النبراوي على الأربعين النووية، تحقيق محمد السيد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ، ط1، ص 6.

3- عمارية حاكم،(2015)، الخطاب الإقناعي في ضوء التواصل اللغوي - دراسة لسانية تداولية في الخطابة العربية أيام الحجاج بن يوسف الثقفي-، دار العصماء، سورية،ط1، ص142.

4 - الندوة العالمية للشباب الإسلامي في أصول الحوار، (1998)، السعودية، ط5، ص10.

5- محمد الصباغ، الحديث النبوي الشريف - مصطلحه، بلاغته، كتبه -،المكتب الإسلامي، بيروت لبنان،ط1، ص 100.

6 - أبي زكرياء يحي بن شرف النووي، كتاب الأربعون النووية، دار السلام للطباعة والنشر، مصر، ط4، صفحة22.

7- المرجع نفسه، ص 16.

8 - ينظر أميمة بدر الدين، (2018)،التكرار في الحديث النبوي الشريف، مجلة جامعة دمشق، مجلد 26، عدد 1+2، ص 76.

9 - أبي زكرياء يحي بن شرف النووي، مرجع سابق، ص 03.

10- الرجال أسماء فريد، تلقي الخطاب الديني - القنوات، السياق، الأثر -، دار العربي للنشر، بيروت ص 25.

11- محمد المتقن، (2004)، في مفهومي القراءة والتأويل، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مجلد 33، عدد2. أكتوبر - ديسمبر، ص 15.

12 - أخرجهما البخار ومسلم في صحيحهما عن ابن عمر.

13- ينظر الطاهر بن عاشور، (2004)، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ص 20.

14- حسام أحمد فرج، (2009)، نظرية علم النص - رؤية منهجية في بناء النص النثري -، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2، ص 22.

15 - ابن القيم الجوزية، بدائع الفوائد، تحقيق علي بن محمد، دار عالم المعرفة، دط، ص 1314.

16- عبد الهادي بن ظافر الشهري، (2004)، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة، بيروت، ط1، ص93.

17 - أحمد محمد علي بيومي، (2015)، الجامع في شرح الأربعين النووية، دار الكتاب الحديث، الجزائر، صفحة172.

18 - حاشية النبراوي، مرجع سابق، ص 154.

19 - محمود طلحة، (2013)، منوال الأصوليين في تحليل الخطاب، دراسة في المبادئ التداولية، منشورات مخبر اللسانيات التداولية وتحليل الخطاب، جامعة عمار ثليجي الأغواط، ط2، ص97.

20 - كتاب الأربعون النووية، مرجع سابق، ص 26.

21 - طه عبد الرحمن، 1998. اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء للنشر،ط1، ص 152.

22 - كتاب الأربعون النووية، مرجع سابق، ص 16.

23 - أوغند وريتشاردز،(2015)، معنى المعنى - دراسة لأثر اللغة في الفكر ولعلم الرمزية-، ترجمة كيان أحمد حازم يحي، دار الكتاب الجديدة، ليبيا، ط1، ص412.

24 - كتاب الأربعون النووية، مرجع سابق، ص04.

25 - الجامع في شرح الأربعين النووية، مرجع سابق، ص 382.